قبسات من أنوار الإمام الهادي عليه السلام

بقلم: د. أليس كوراني

«هـو مـن بيت الرِّسالـة والإمامة، ومقرّ الوصيّة والخلافة، شعبة من دوحة النّبوَّة... وثمرة مـن شجرة الرِّسالة...كان أطيب النّاس مهجة، وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب، وأكملهم من بعيد، إذا صمت عليه هيبة الوقار، وإذا تكلّم سيماء البهاء...».

وُلد في رجب عام ٢١٤هـ/في صريا، وهي ضيعة قد أسّسها جدّه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على بُعد ثلاثة أميال من المدينة المنوَّرة.

عاصر من حكّام بني العباس: المعتصم (آخر ملكه)، والواثق، والمتوكّل، والمستعين، والمعتزّ، وقيل المعتمد أيضاً.

كنيتـه أبـو الحسـن، ويقال له أبو الحسـن الثّالث، وقيل له العسكريّ، وكذلك قيل لابنه الحسن عليه السلام، لأنّ المحلَّة التي سكنها هذان الإمامان في سامرّاء، كانت تسمّى عسكر.

لُقّب الإمام عليّ بن محمّد عليه السلام بألقابٍ كثيرةٍ، منها: الهادي، والعالم، والفقيه، والفقيه العسكريّ.

خروجه من المدينة إلى سامراء

تولّى الإمام الهادي عليه السلام الإمامة في مقتبل عمره، ومكث في المدينة المنوَّرة يثبّت دعائم الدّين، ويوضّح مسالك الشّريعة، فأضحى مقصداً لروّاد العلم الذين قصدوه من كلّ حدبٍ وصوبٍ، كما أضحى مرجعاً للنّاس يستفتونه في ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم.

ولمّـا سطـع نجمـه في مدينة جدّه صلى الله عليه وآله، خاف أتباع الحاكـم العبّاسيّ من تعاظم دوره، فسعى به إلى المتوكّل عبـد الله بن محمّد الذي كان يتولّى الحـرب والصّـلاة فـي المدينة، وكان يقصده بالأذى، كما أن بُريحة العبّاسيّ كتب إلى المتـوكّل: إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرجْ عليّ بن محمّد منهـا فإنّـه قـد دعا النّاس إلى نفسه واتّبعه خلق كثير، ثمّ كتب إليه بهذا المعنى غيـره من القادة. فخاف المتوكّل من مكانته، وخشي أن تنصرف إليه وجـوه النّاسـ فيخـرج أمر السّلطة عنهم، فوجّه إلـى المدينة يحيى بن هرثمة لإخراج الإمام الهادي عليه السلام دون إحـداث بلبلة نظراً إلى مكانته في قلوب الحجازييـن، وحـول هـذا الأمر حدّث ابن هرثمة فقال: وجّهني المتوكّل إلى المدينة لإشخاص عليّ بـن محمّد بن عليّ بن موسى عليه السلام لشيءٍ بلغه عنه، فلمّـا صـرت إليـه، ضجّ أهلها وعجّوا ضجيجـاً وعجيجاً ما سمعت مثله، فجعلت أسكّنهم وأحلف أنّي لم أؤمر بمكـروه، وفتّشت منزله، فلم أصب فيه إلّا مصاحف ودعاء وما أشبه ذلك، فأشخصته وتولّيت خدمته، وأحسنت عشرته....

وكان صيت الإمام عليه السلام قد ذاع في الحاضرة الإسلاميّة، وكان الخاصّة والعامّة يبجّلونه. ولمّا وصل يحيى بن هرثمة بالإمام إلى بغداد، قصد وإليها إسحاق بن إبراهيم الطاهريّ فقال له: يا يحيى إنّ هذا الرّجل قد ولده رسول الله صلى الله عليه وآله، والمتوكّل مَن تعلم، وإن حرّضته عليه قَتَلَهُ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله خصمك، فقال يحيى: والله ما وقفت منه إلّا على أمرٍ جميلٍ. ثمّ سار به إلى سامراء فبدأ بوصيف التّركي وكان من أصحابه، فقـال لـه: والله لئـن سقـط من رأس هذا الرّجل شعرة لا يكـون الطّالب بها غيري، فتعجّب يحيى من قولهما وعـرّف المتوكّل ما وقف عليه من أمره، وما سمعه من الثّناء عليه.. فأقام بسامراء حتّى مضى لسبيله وكان مدّة إمامته ثلاثاً وثلاثين سنة.

مكانة الإمام عليه السلام في سامراء

كان الهـادي عليه السلام موضـع مراقبـة رجال السّلطة، وعلى الرّغم من عداء المتوكّل لأهل البيت عليهم السلام ولأتباعهم، وبغضه المكشوف لهم، فإنّه لم يجـرؤ علـى الإمام لحبّ النّاس إياه ومكانته فـي قلوبهم، فكان النّاس ينتظرون خروجه من منزله للنّظر إلى وجهه الشّريف ولإلقاء التّحية؛ فعن خـادم علـيّ بـن محمّد عليه السلام قال: كان المتوكّل يمنع النّاس من الدّخول إلى عليّ بن محمّد، فخرجتُ يوماً وهو في دار المتوكّل فإذا جماعة من الشّيعة جلوس خلف الدّار فقلت: ما شأنكم جلستم هنا؟ قالوا: ننتظر انصراف مولانا للنظر إليه ونسلّم عليه ثمّ ننصرف...

وكان يُعـرف بابـن الرّضا عليه السلام، نظـراً إلى شهرة الإمام الرّضا التي طبقت الآفاق في الحاضـرة الإسلاميّة، فكان على سمته وهديه وعلمه فَنُسب إليه.

وحتّى أمُّ المتوكّل، كانت تدرك مكانته العظيمة، فنور إمامته كان يشع كسراج مضيء في ليلة ظلماء، فكانت تنذر لله هديّةً إلى الهادي عليه السلام.

وكذلك عرف قدره كثير من رجال المتوكّل وحاشيته، وفي ذلك روي أنّ المتوكّل مرض من خُرّاج (دمّل) خرج به، فأشرف منه على التّلف، فلم يجسر أحد أن يمسّه بحديدة، فنذرت أُمّه إن عوفي أن تجعل إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام مالاً جليلاً من مالها. وقال له وزيره الفتح بن خاقان: لو بعثت إلى هذا الرّجل، يعني أبا الحسن، فسألته فإنّه ربّما كان عنده صفة شيء يفرّج الله به عنك، قال: ابعثوا إليه فمضى الرّسول ورجع، فقال عليه السلام: حذوا كُسْبَ الغنم (أي عصارة الدّهن) فديّفوه بماء ورد، وضعوه على الخراج فإنّه نافع بإذن الله. فجعل من بحضرة المتوكّل يهزأ من قوله، فقال لهم الفتح: وما يضرّ من تجربة ما قال، فوالله إني لأرجو الصّلاح به، فأحضر الكُسب، وديف بماء الورد ووضع على الخراج، فانفتح وخرج ما كان فيه، وبشّرت أمّ المتوكّل بعافيته فحملت إلى أبي الحسن عليه السلام عشرة آلاف دينار تحت ختمها فاستقلّ المتوكّل من علّته.

فلمّا كان بعد أيّام سعى به إلى المتوكّل أحد العلويّين الموالين لبني العبّاس يُعرف بالبطحائيّ، فقال: عنده سلاح وأموال. فطلب المتوكّل من سعيد الحاجب أن يهجم ليلاً عليه، ويأخذ ما يجد عنده من الأموال والسّلاح، ويحمل إليه. فصار سعيد إلى دار أبي الحسن عليه السلام بالليل، ومعه سلّم، فصعد منه إلى السّطح، ونزل من الدّرجة إلى بعضها في الظّلمة، فلم يدرِ كيف يصل إلى الدّار فناداه أبو الحسن عليه السلام من الدّار: يا سعيد مكانك حتى بشمعة فلم ألبث، يقول سعيد، أن أتوني بشمعة فنزلت فوجدت عليه جبّة من صوف وقلنسوة منها وسجادته على حصير بين يديه وهو مقبل على القبلة فقال لي: دونك البيوت. فدخلتها وفتشّتها فلم أجد فيها شيئاً، ووجدت البدرة مختومة بخاتم أمّ المتوكّل وكيساً مختوماً معها، فقال أبو الحسن عليه السلام: دونك المصلّى فرفعت فوجدت سيفاً في جفن غير ملبوس، فأخذت ذلك وصرت إليه. فلمّا نظر إلى خاتم أُمّه على البدرة بعث إليها، فخرجت إليه، فسألها عن البدرة، فقالت له: كنت نذرت في علّتك إن عوفيت أن أحمل إليه من مالي عشرة آلاف دينار فحملتها إليه وهذا خاتمك على الكيس ما حرّكها. فأمر المتوكّل أن يضمّ إلى البدرة بدرة أخرى وقال لي: احمل ذلك إلى أبي الحسن واردد عليه السّيف والكيس بما فيه، فحملت ذلك إليه واستحييت منه، وقلت: يا سيّدي عزّ عليّ دخول دارك بغير إذنك، ولكنّي مأمور به، فقال لي: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ولما مرّ يزداد الطبيب النصرانيّ تلميذ بختيشوع وهو منصرف من دار موسى بن بغا فقال لصاحبه: أترى هذا الجدار؟ أتدري من صاحبه؟ قال: هذا الفتى العلويّ الحجازيّ ـ يعني عليّ بن محمّد بن الرّضا عليهما السلام.

المشهد الفكرّي في عصر الإمام

بعد المأمون العباسيّ، تراجعت الحركة الفكريّة في الحاضرة العبّاسيّة، وقُمِعت الحريّات في الرّأي، وظهرت محنة خلق القرآن، وكلما تراجعت حرية الفكر تقدّم القمع وظهر التّطرّف في المعتقدات.

ومن رؤوس هؤلاء الغلاة المعاصرين للإمام الهادي عليه السلام: علي بن حسكة، والقاسم بن يقطين، والقاسم بن يقطين، وفارس بن حاتم بن ماهويه القزويني.

ولم يألُ الإمام الهاديّ عليه السلام جهداً في سبيل التصدي لهذه الحركة المنحرفة، فقد لعنهم الإمام عليه السلام وأعلن البراءة منهم، ودعا إلى نبذ أتباعهم، وحذَّر أصحابه وسائر المسلمين من الاتصال بهم أو الانخداع بمفترياتهم ودسائسهم، بل وأمر بقتل زعيم الغلاة في وقته فارس بن حاتم.

كما تصدّى الإمام الهاديّ عليه السلام للقول بالتّحريف والنّقص في القرآن، وفي رسالة له ذكرها ابن شعبة في كتابه تحف العقول والتي كتبها الإمام عليه السلام أصلاً كردّ على أهل الجبر والتّفويض، يُشدّد فيها عليهم، ويؤكّد في بدايتها على سلامة القرآن وأصالته، حيث يقول عليه السلام: «... وقد اجتمعت الأُمّة قاطبة، لا اختلاف بينهم، أنّ القرآن حقٌّ لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تجتمع أمّتي على ضلالة» فأخبر أنّ جميع ما اجتمعت عليه الأُمّة كلّها حقّ، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضاً. والقرآن حقّ لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه وأنكر الخبر طائفة من الأُمّة لزمهم الإقرار به ضرورةً حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب، فإن [هي] جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملّة».

وكذلك كتب الإمام الهاديّ عليه السلام إلى شيعته في بغداد بالابتعاد عن الخوض في مسألة خلق القرآن بعدما أمر حكّام بني العبّاس بالتوقّف عن الحديث في ذلك، وقد روي عنه عليه السلام الكتاب الآتي: عن محمّد بن عيسى بن عبيد بن يقطين قال كتب عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام إلى بعض شيعته ببغداد: «بسم الله الرّحمن الرّحيم عصمنا الله وإيّاك من الفتنة فإن يفعل فأعظم بها نعمة وإلّا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السّائل ما ليس له، وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلّا الله، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضّالين جعلنا الله وإيّاك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من السّاعة مشفقون».

الإمام الهادي عليه السلام ومرجعيّته الدّينيّة

لجأ النّاس في سامراء إلى الإمام عليّ الهاديّ عليه السلام يستفتونه في أمور دينهم ودنياهم، ولم يجد الحاكم وحاشيته بدّاً من الرّجوع إليه عندما عجز فقهاؤهم في حلّ بعض المسائل، من ذلك أنّ المتوكّل مرض، فنذر إن رزقه الله العافية أن يتصدّق بمال كثير. فلمّا عوفي اختلف الفقهاء في المال الكثير، فقال له الحسن حاجبه: إن أتيتك يا أمير المؤمنين بالصّواب فما لي عندك؟ قال: عشرة آلاف درهم، وإلّا ضربتك مائة مقرعة قال: قد رضيت، فأتى أبا الحسن عليه السلام فسأله عن ذلك فقال: قل له: يتصدّق بثمانين درهماً. فأخبر المتوكّل، فسأله: ما العلة؟ فأتاه فسأله قال: إن الله تعالى قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة: ٢٥]. فعدّدنا مواطن رسول الله صلى الله عليه وآله فبلغت ثمانين موطناً. فرجع إليه فأخبره وأعطاه عشرة آلاف درهم.

وطلب المتوكّل يوماً من مؤدّب ولده ابن السّكّيت أن يسأل الهاديّ عليه السلام مسألة عوصاء بحضرته فسأله ابن السّكّيت فقال: لِمَ بعث الله موسى بالعصا، وبعث عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وبعث محمّداً بالقرآن والسّيف؟. فقال أبو الحسن عليه السلام: بعث الله موسى عليه السلام بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السّحر، فأتاهم من ذلك ما قهر سحرهم وبهرهم، وأثبت الحجّة عليهم، وبعث عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمانٍ الغالب على أهله الطّبّ فأتاهم من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله فقهرهم وبهرهم، وبعث محمّداً بالقرآن والسّيف في زمان الغالب عليه السّيف والشّعر، فأتاهم من القرآن الزّاهر والسّيف القاهر ما بهر به شعرهم وبهر سيفهم وأثبت الحجّة به عليهم. فقال ابن السّكّيت: فما الحجّة الآن؟ قال: العقل يعرف به الكاذب على الله فيكذّب. فقال يحيى بن أكثم: ما لابن السّكّيت ومناظرته؟ وإنما هو صاحب نحو وشعر ولغة، ورفع قرطاساً فيه مسائل فأملى عليّ بن محمّد عليه السلام على ابن السّكّيت جوابها وأمره أن يكتب. سألتَ عن قول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠] هو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف، ولكنّه أحبّ أن يعرّف أمّته من الجن والإنس أنّه الحجّة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهّمه ذلك، لئلا يختلف في إمامته وولايته من بعده، ولتأكيد الحجّة على الخلق. وأمّا سجود يعقوب لولده فإن السّجود لم يكن ليوسف وإنّما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله تعالى وتحيّة ليوسف عليه السلام، كما أنّ السّجود من الملائكة لم يكن لآدم عليه السلام، فسجود يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله تعالى باجتماع الشّمل، ألم تر أنه يقول في شكره في ذلك الوقت: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وأمّا قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [يونس: ٩٤] فإنّ المخاطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن في شكّ ممّا أنزل الله إليه، ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث الله نبيّاً من الملائكة؟ ولمَ لمْ يفرّق بينه وبين النّاس في الاستغناء عن المأكل والمشرب، والمشي في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله. ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [يونس: ٩٤] بمحضر من الجهلة، هل بعث الله نبيّاً قبلك إلّا وهو يأكل الطّعام، ويشرب الشّراب، ولك بهم أسوة يا محمّد...» إلى آخر المناظرة التي حفظتها كتب الأحاديث والرّوايات.

وقد ذكر الشّيخ الطوسيّ في كتابه المعروف بـ(رجال الطّوسيّ) مائة وخمسة وثمانين تلميذاً ورواوياً أخذوا رووا عن الإمام الهاديّ عليه السلام.

الإمام الهاديّ عليه السلام ولغات عصره وآدابه

تؤكّد الرّوايات أنّ الإمام الهاديّ كان عالماً بلغات عصره، من فارسيّة وهنديّة، وتركيّة. فقد روى عليّ بن مهزيار قال: «أرسلتُ إلى أبي الحسن الثّالث الهاديّ عليه السلام غلامي ـ وكان صقلبيّاً ـ فرجع الغلام إليّ متعجّباً! فقلت له: ما لك يا بُنيّ؟! فقال: وكيف لا أتعجّب، ما زال يكلّمني الصّقلبية كأنّه واحدٌ منّا!».

وقال أيضاً: «عن الطّيب الهاديّ عليه السلام قال: دخلت عليه فابتدأني فكلّمني بالفارسيّة».

وقال أبو هاشم: «كنتُ عند أبي الحسن عليه السلام وهو مجدّر، فقلت للمتطبّب: (آب كرفت) ثم التفتَ إليّ وتبسّم، وقال: تظن أنّه لا يحسن الفارسيّة غيرك؟ فقال له المتطبّب: جُعِلْتُ فداك تحسنها؟ فقال: أمّا فارسيّة هذا فنعم، قال لك: احتملَ الجدري ماء».

وعن إتقانه التّركيّة، روي عن أبي هاشم الجعفريّ أنّه قال: «كنتُ بالمدينة حين مرّ بها «بغا» أيّام الواثق في طلب الأعراب، فقال أبو الحسن الهاديّ عليه السلام: اخرُجوا بنا حتّى ننظر إلى تعبئة هذا التّركيّ، فخرجنا فوقفنا.. فمرّت بنا تعبئته، فمرّ بنا تركيّ فكلّمه أبو الحسن عليه السلام بالتّركيّة، فنزل عن فرسه فقبّل حافرَ دابّة أبي الحسن...».

وعنه أيضاً أنّه قال: «دخلتُ على أبي الحسن فكلّمني بالهنديّة ولم أحسن أن أردّ عليه...».

ودخل يوماً على المتوكّل فقال: يا أبا الحسن من أشعر النّاس؟ وكان قد سأل قبله الشّاعر عليّ بن الجهم (ت٢٤٩هـ)، فذكر شعراء الجاهليّة وشعراء الإسلام. فلمّا سأل الإمام عليه السلام قال: فلان بن فلان العلويّ ـ قال ابن الفحّام: وأخوه الحمانيّ (ت٣٠١هـ) الذي يقول:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة

بمط خدود وامتداد أصابع

فلما تنازعنا القضاء قضى لنا

عليهم بما فاهوا نداء الصّوامع

قال: وما نداء الصّوامع يا أبا الحسن؟ قال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أن محمّداً رسول اللّه. جدّي أم جدّكم؟ فضحك المتوكّل كثيراً، ثمّ قال: هو جدّك لا ندفعك عنه.

وكان الهـاديّ عليه السلام إذا أنشـد شعـراً، فإنّه يأتي بالشّعر الذي يذكّر بالآخرة، من ذلك ما رواه المسعوديّ في مروج الذّهب: سُعي إلى المتوكّل بعليّ بن محمّد الجواد عليه السلام أنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدّولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهاجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرّمل والحصى، وهو متوجّه إلى اللّه تعالى يتلو آيات من القرآن. فحُمِل على حاله تلك إلى المتوكّل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة. فلمّا رآه هابه المتوكّل وعظّمه وأجلسه إلى جانبه... وقال: أنشدني شعراً فقال عليه السلام: إنّي قليل الرّواية للشّعر فقال: لا بدّ. فأنشده عليه السلام وهو جالسٌ عنده:

باتوا على قُلَلِ الأجبال تحرسهم

غُلْبُ الرّجالِ فلم تنفعهم القُلَلُ

واستُنزِلوا بعد عز من معاقلهم

وأُسكِنوا حفراً يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد دفنهم

أين الأسرَّة والتيجان والحللُ

أين الوجوه التي كانت منعّمة

من دونها تضرب الأستار والكللُ

فأُفصح القبر عنهم حين ساءلهم

تلك الوجوه عليها الدّود يقتتلُ

قد طال ما أكلوا دهرا وقد شربوا

وأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

قال: فبكى المتوكّل حتّى بلّت لحيتَه دموعُ عينيه، وبكى الحاضرون، ودفع إلى عليّ أربعة آلاف دينار، ثم ردّه إلى منزله مكرّماً.

شهادته

استشهد الهاديّ عليه السلام بسامرّاء عام ٢٥٤هـ. ودُفِن في داره، ويقال إنّ القوم حاولوا دفنه في مقبرة سامرّاء، لكنّ تدافع النّاس لوداعه حالت دون وصول الجنازة إلى هناك والصلاة عليه، فأُعيد الجثمان الطّاهر إلى منزله وصلّى عليه الإمام العسكريّ عليه السلام ودُفِن في أرض داره.